الجذور الفلسفية للعنف في فكر سيد قطب
مجلة إضاءات 08/05/2016
http://ida2at.com/the-philosophical-roots-of-violence-in-the-ideology-of-sayed-qutb/

إن مبدأ الهوية الماهوية هو الأصل الأنطولوجي لمفهوم الحاكمية و ما يترتب عنه حاليا من عنف جهادي ورفض للآخر. هذا الرفض ليس و ليد « معالم في الطريق » أو المرحلة السجنية أو التأثر بالمودودي، بل يعود إلى فترة ما قبل السفر إلى أمريكا. لقد جعل قطب من الهوية الماهوية، هوية ثابتة « للنحن » الإسلاموية، هوية جامعة ممانعة لكل المشاريع السياسية المخالفة للمشروع الهوياني الإسلاموي، وممانعة للاستشراق الغربي باستشراق إسلاموي. إذا ارتبط العنف و رفض الآخر بمفهوم الحاكمية، و هذا الأخير بسيد قطب، فإن راديكالية قطب قد أنجبتها المعارك الأدبية العكاظية التي دارت رحاها بين قبائل الأدباء و المثقفين آنذاك على صفحات الجرائد و ما زالت رحاها دائرة إلى اليوم بعد أن انظافت إليها فيالق الفنانين و الفنانات و أصبح مسرحها شاشات العالم العربي. إن العصب الذي غدى الراديكالية و مازال هو: القبلية الفكرية التي تقوم على مبدأ الهوية الماهوية.

إن الهوية الماهوية الثابتة ليست إلا الهوية بالمفهوم الأرسطي، أي الجوهر الثابث الذي لا يتغير بتغير المتغيرات[أ=أ]، و ماهية الموجودات التي لا تتغير بتغير الأعراض. فالهوية الأرسطية تظل مطابقة لذاتها رغم صيرورة التطور الجدلي في مقابل الهوية-الآخر التي تظل بدورها ثابثة و مطابقة لذاتها، فالإختلاف لا ينخر كل منهما من الداخل بل يمايزهما و يفصلهما عن بعضهما البعض.
ظهر مفهوم الهوية الماهوية مأصلا في « مهمة شاعر في الحياة » منذ ١٩٣٢، حيث تمظهر من خلال مفهوم قطب عن الشاعر والشعر. فالشاعر هوية مختلفة مفارقة لباقي هويات الأفراد: أولا، لأن « إحساسه بالحياة أدق و أعمق من إحساس الجماهير...مميزا عن إحساس كل الآخرين » [1]. و ثانيا، لأنه « يعبر عما يحسه تعبيرا أسمى من تعابير الجمهور » [2].و ثالثا، لأنه « ينغمس في الحياة، يحس باحساسها، و يشعر بشعورها، و يتفاعل و إياها، ثم يتحدث عنها بما يحس، أو بما تريد هي أن تحدث عن نفسها »[3]، و عليه فالشاعر هو الواسطة بين الإنسان و الوجود. تتمثل هوية الشاعر في **إحساسه بحقيقة** الكون و الإنسان و العالم، فهو « أعرف بالحقيقة » من غيره [4].

ميز قطب بين هويتين: الهوية الشاعرة و هوية الغير الشاعرة (الانسان العادي)، ثم فصل الهوية الشاعرة إلى هويتين: الهوية الصادقة و الهوية المزيفة [5]. فالهوية الشعرية الصادقة، وحدها القادرة على بلوغ حقيقة الوجود و نقلها للآخرين، فالشاعر « صاغته الحياة ليكون واسطة بينها و بين أبنائها

---

[1] سيد قطب، مهمة الشاعر في الحياة و شعر الجيل الحاضر، ص 14.

[2] سيد قطب، مهمة الشاعر في الحياة و شعر الجيل الحاضر، ص 14.

[3] سيد قطب، مهمة الشاعر في الحياة و شعر الجيل الحاضر، ص 13.

[4] سيد قطب، مهمة الشاعر في الحياة و شعر الجيل الحاضر، ص 13.

[5] سيد قطب، مهمة الشاعر في الحياة و شعر الجيل الحاضر، فصل: من هو الشاعر؟، فصل: الشاعر و المصور، فصل: الشاعر و الفيلسوف، فصل: شخصية الشاعر، فصل: الشعراء المزيفون و شعراء العاطفة.

الآخرين »[6]. بينما الهوية المزيفة، هوية الشعراء المزيفون و المرتزقة، شعراء البلاط، لا يعبر شعرهم عن أحاسيسهم الصادقة و أخيلتهم المتناسقة، حيث « ترى لهؤلاء الشعراء في كل يوم قصيدة رثاء لمن يعرفون و من لا يعرفون، و مديحا لمن خبروا و من لم يختبروا، و قصائد في كل حفلة تقام للوداع أو للتكريم، و زلفى حقيرة للرؤساء و غير الرؤساء تعد وصمة في جبين الإنسانية المنكوبة بتلك الجراثيم (...) هذه الطائفة الخيرة التي تتحدث لا عن شعور، و تنشد لا عن عاطفة و تعد نفسها من الشعراء و هي محرومة من صفات الآدميين» [7]. جرد قطب شعراء الأحاسيس « المزيفة » من الهوية الشعرية، و من الهوية الآدمية و نزل بهم إلى الهوية الجرثومية ! إذا ما بحثنا في « مهمة الشاعر في الحياة » عن أسماء هؤلاء الشعراء المزيفون ، سنجد على رأسهم أمير الشعراء أحمد شوقي و حافظ إبراهيم، إنهم شعراء مدرسة البعث و الإحياء الكلاسيكية.

إن الهوية الشعرية القطبية تقوم على الإحساس بوحدة الكون، بحيث تتوحد الذات الشعرية بالوجود، و الصور الشعرية ما هي إلا تعبيرعن هذه الوحدة. لقد ربط قطب الأرض بالسماء من خلال الهوية الشعرية، كما سيربطها لاحقا من خلال الهوية المسلمة و العصبة المؤمنة. و إذا كانت الصور الشعرية هي القناة الرابطة بين الإنسان و الكون، فإن الحاكمية/الشريعة هي القناة الرابطة بين الانسان و الألوهية.

لقد تمثلت وحدة الوجود في وحدة النص الشعري -وحدة الصور و الأخيلة- كما تجسدت الألوهية في وحدة النص القرآني. إن سيد لا يرى « في الخيال سموا، إلا إذا كان كل جزء منه مكملا للآخر، بحيث تكون أخيلة القصيدة جميعها متناسقة، و الظل الذي تطبعه الصورة المتخيلة ظلا كاملا، متلائم الأجزاء، لا نتوء فيه و لا تعارض. و بعبارة أخرى أن تكون وحدة الشعر هي القصيدة لا البيت أو الشطرة...و الذي نتطلبه هو الذي يتفق و طبيعة الجمال. الجمال لا يعترف بالأجزاء، بل و لا أتصور وجوده في الأجزاء كل على حدة، فالجمال تناسق الأعضاء أو هو قوة تنتج عن هذا التناسق» [8].

في « معالم في الطريق »، قسم سيد قطب المجتمعات القائمة إلى مجتمعين متناقضين و متنافرين، مجتمع إسلامي متحضر و مجتمع جاهلي متخلف، فالإسلام « لا يعرف إلا نوعين اثنين من المجتمعات... مجتمع اسلامي، و مجتمع جاهلي »[9]. فالمجتمع المتحضر هو « الذي يطبق فيه الإسلام...عقيدة و عبادة، و شريعة و نظاما، و خلقا و سلوكا.... » [10]. أما المجتمع الجاهلي المتخلف، فهو « المجتمع الذي لا يطبق فيه الإسلام، و لا تحكمه عقيدته و تصوراته، و قيمه و موازينه، و نظامه و شرائعه، و خلقه و سلوكه »[11]، إنه ذلك المجتمع الذي يعلي من شأن المادة، « سواء في صورة النظرية كما في التفسير الماركسي للتاريخ! أو في صورة الإنتاج المادي كما في امريكا و أوروبا » [12]. و عليه، لا يعد مجتمعا إسلاميا و لا متحضرا ذالك الذي « يضم ناسا ممن يسمون أنفسهم (مسلمين)، بينما شريعة الإسلام ليست هي قانون هذا المجتمع، و إن صلى و صام و حج البيت الحرام! و ليس المجتمع الإسلامي هو الذي يبتدع لنفسه إسلاما من عند نفسه -غير ما قرره

[6] سيد قطب، مهمة الشاعر في الحياة و شعر الجيل الحاضر، ص 14.

[7] سيد قطب، مهمة الشاعر في الحياة و شعر الجيل الحاضر، ص 76-77.

[8] سيد قطب، مهمة الشاعر في الحياة و شعر الجيل الحاضر، ص 44.

[9] سيد قطب، معالم في الطريق، ص 105.

[10] سيد قطب، معالم في الطريق، ص 105.

[11] سيد قطب، معالم في الطريق، ص 105.

[12] سيد قطب، معالم في الطريق، ص 110.

الله سبحانه و فصله رسوله صلى الله عليه و سلم- و يسميه مثلا « الإسلام المتطور » [13].

فالشريعة إذن ليست فقط مجموع القوانين التي تنظم الحياة السياسية و الإقتصادية و الإجتماعية، بل تمثل أيضا منظومة القيم و الأخلاق و الثقافة و المعرفة و التمثلات العقدية. إنها بحسب التصور القطبي، نموذجا كليا أو براديغم يأطر مفهوم الإنسان و المجتمع و العالم و الكون، و يأسس للفعل الاجتماعي و السياسي و الثقافي و الأخلاقي و التاريخي و المعرفي يقوم مصدره « خارج النطاق الأرضي، و من خارج المحيط البشري » [14]. إنه الله، الذي خلق كل شيء، وضع « تصورا خاصا للوجود و الحياة و التاريخ و العادات و الغايات، و ... منهجا للعمل »[15].

سلم سيد قطب بوحدة الإنسانية و انصهارها في بوثقة العقيدة، و عليه فقد خلص إلى أن الإنسانية رغم إختلافها على مستوى الشكل، فهي تظل في جوهرها هوية لا ينخرها التعدد و الإختلاف، لأنها تقوم على عقيدة واحدة لا ينخرها الإختلاف و لا تخضع لتعدد القراءات و الممارسات التاريخية. فالعقيدة تنظم الإنسانية داخل مجتمعات، و تعدد هذه المجتمعات لا يجب أن يفهم بمعنى الإختلاف و التناقض و إنما بمعنى تعدد التطابق. فالمجتمعات الإسلامية تظل هي هي نفسها، متطابقة على مستوى الجوهر و إن اختلفت على مستوى الشكل. و الجوهر هنا بمعناه الأرسطي، أي كهوية مغلقة لا تقبل الإختلاف داخلها، (أ=أ) و (أ) لا تقبل بوجود مختلف عنها (ب) و لا بنقيض (- أ) بداخلها. يؤكد سيد قطب أن « المجتمع الإسلامي إذن من ناحية شكله و حجمه و نوع الحياة السائدة فيه ليس صورة تاريخية ثابثة، لكن وجوده و حضارته يرتكنان إلى قيم تاريخية ثابثة، و حين نقول تاريخية لا نعني إلا أن هذه القيم قد عرفت في تاريخ معين ، و إلا فهي ليست من صنع التاريخ، و لا علاقة لها بالزمن في طبيعتها، إنها حقيقة جاءت للبشرية من مصدر رباني، من وراء واقع البشر، من وراء الوجود المادي » [16]. إن هوية المجتمع الإسلامي القطبي، هوية أرسطية ثابثة و متعالية، لا تخضع لقانون التطور التاريخي الديالكتيكي، ولا لتغيرات الشروط الموضوعية و الذاتية المكونة لهذه الهوية، إنها هوية قبلية، تستمد وجودها من وحدة الذات الإلهية لتمانع الشريعة الحيوانية المادية الوضعية[17].، و بما أن مصدر الشريعة متعالي و ترنسدنتالي و لا يخضع لقانون التبدل والتغير، فإن كل ما يصدر عنه بالضرورة من شرائع هو ثابث وغير متحول. لقد استخلص سيد قطب من مقدمة أن « الله ثابث لا يتغير » ، خلاصة أن « الشريعة ثابثة لا تتغير »، و هذه خلاصة غير سليمة المنطق. فإذا كانت الذات الإلهية ثابثة فإن كل مايتعلق بها ثابث بالضرورة. و إذا كانت المخلوقات الإلهية متحولة و متغيرة و فانية فإن كل ما يخصها متغير و فاني « كل من عليها فاني و يبقى و جه ربك ذو الجلال و الإكرام » [18]. و بما أن الشريعة تخص المخلوقات الإلهية و ليس الذات الإلهية، فإنها متغيرة بالضرورة.

استخدم سيد قطب المنهج الجدلي السوفسطائي البلاغي ليستخلص من مقدمة صحيحة: « ثباث الذات الإلهية » استنتاجا خاطئا: « ثباث الشأن الإنساني »، لكن هذا الإستدلال يسقط أمام أبسط قواعد الإستدلال البرهاني العقلاني.

قادت الهوية الماهوية الفكر القطبي منذ بداياته، من الهوية الشعرية إلى الهوية الإسلامية، و هاجس الوحدة و

---

[13]سيد قطب، معالم في الطريق، ص 105.

[14] سيد قطب، معالم في الطريق، ص 117.

[15] سيد قطب، معالم في الطريق، ص 117.

[16] سيد قطب، معالم في الطريق، ص 120. أنظر أيضا ص 52.

[17] سيد قطب، معالم في الطريق، ص 111.

[18] القرآن، السورة الرحمن (55)، آية 26-27.

التطابق قاده إلى رفض الآخر و الجهاد ضده. غرض الجهاد فرض الحاكمية الإلهية على كل الهويات التي التي تقع خارج الهوية الاسلاموية الافتراضية، هوية الإخوان المسلمين التي اعتبرها التجسيد الفعلي لمبدأ العبودية. أيضا، لم يرى قطب في الغرب غير وجهه الإستعماري والامبريالي ولم يسعه أن يرى و جهه التنويري الانساني. لقد نظر إليه كوحدة متطابقة و منسجمة و ليس كهوية ديالكتيكية ينخرها التعدد و الاختلاف، و لهذا تمسك بالهوية الافتراضية، العصبة المؤمنة، كقاطرة لاستنهاض الذات العربية الضعيفة وتوحيدها داخل مشروع هوياني ديني ممانع للمشروع القومي التقسيمي الذي وضعته القوى الاستعمارية خلال سايس بيكو.